د/ السعيد بوسقطة جامعة باجي مختار عنابة

## النص الأدبي وإشكالات القراءة" المقاربة السوسيونقدية "

### 1- النص وإشكالية المنهج

تركز الدراسات النقدية الحديثة على النص بوصفه مجال عملها، غير أن هناك تباينا في التعامل مع المصطلح، حيث نميز عموما بين مفهومين مختلفين، فالأول قد أنتجته المدرسة الفرنسية (رولان بارت)، أما الثاني فهو مغاير لمفهوم بارت، ينطلق من دراسة باختين حول علوم اللغة ويؤصله يوري لوثمان و ادوارد سعيد.

ومادام النص إحالة إلى إطار مرجعي، فإن تلك المرجعية ستحدد طبيعة التعامل معه بوصفه كلا مكونا من عناصر مختلفة متكاملة فيما بينها على أساس مستويات متعددة، أو النظر إليه من منظور علوم مختلفة تاريخية ونفسية وإيديولوجية وغيرها ونظرا لكون هذا النص عائما كما يؤكد الغدامي(1) فإن مبدعه يطلقه في فضاء ويأخذ في تقرير حقيقته، وهذا النص هو بمثابة رسالة ترميزية يبثها مرسل إلى مستقبل، تحدد استجابتها لعملية الاستيعاب، وهو كذلك نص معرفي تتلاقى فيه جملة من المعارف الإنسانية، يعيش في حضور صاحبه وفي غيابه لكونه كائنا عضويا تفاعلت في صنعه عوامل عدة قبل إبداعه، ويكتسب قدرته الفنية من خلال قدرته على الإيحاء والتأويل والانزياح.

ومادام هذا النص لغة، أي ينتمي إلى مجال اشاري إيديولوجي كما يؤكد باختين، فهو حديث عن العالم، وهو نموذج خاص لا يمكننا النظر إليه بمعزل عن العامل الذي ولد فيه، ولكي يتمكن القارئ من حل شفرته ينبغي عليه التعامل معه في سياقات متعددة ضمن عدد من المستويات، خاصة وأنة (النص كما يرى بعضهم ليس نيزكا(2) سقط عرضا فوق الأفراد، بل هو إنتاج فرد في مجتمع تحكمه عوامل كثيرة: اقتصادية واجتماعية، وإيديولوجية وغيرها، ليصبح النص إزاءها عبارة عن متوالية من التجليات، فكلما تعددت التغيرات وتنوعت أسهمت في فهمه وتنويره ولعل هذا ما يدفعنا إلى اعتبار النص فعلا " ملتقى المناهج " لتعدد بذلك القراءات، وبتعددها تكون النتائج

مختلفة ثرية ومجدية، وعلى العكس من ذلك، كلما كانت احاديد البحث ضيقة، كانت النتائج ضحلة وغير مستوفية، وعلى ضوء هذا نجد الكثير من الدراسات الحديثة تحاول التخلي عن التجزئة في دراسة النص والاعتماد على اطار شامل وتبيان علاقة النص ببقية الأنظمة الاشارية.

ولتحقيق النهوض بالدراسات النقدية، حاول البعض المزاوجة بين عناصر ادبية مختلفة، وعلى حقيقة التوازن بينها كالأصوات والصور والجمل والعلاقات ..... وهي أمور لا يمكن أن يستوعبها منهج واحد، ولهذا يقترح البعض التعامل مع النص عن طريق ما يسميه تودروف القراءة عن طريق البناء **la lecture en constriction** ومن هنا تتبين لنا صعوبة التعامل مع النصوص الأدبية، إذ أصبحت معضلة تتسع وتتعارض المحاولات من تقليدية سطحية إلى دقيقة عميقة، كما يبقى الإشكال مطروحا حول العلاقة بين العناصر النصية (البنى الداخلية) وبين الظواهر الخارجية (البنى الخارجية) ومن ثمة كيف يمكننا تفسير النص الأدبي ؟

لا شك أن المناهج قد تعددت، ولكنها تهدف في المقام الأول إلى تفكيك النص وإعادة بنائه، جاعلة إياه يتجدد بتجدد القراءات، والأكيد أنه ليس هناك منهج (نموذج) لدراسة النص يكون هو المهيمن على مختلف الحقول المعرفية، يفسر الظواهر اللغوية وغير اللغوية ... المهم هو تعدد مستويات القراءة سعة وعمقا من " اسقاطية، تعليقية، كشفية، استرجاعية وغيرها من المسميات في نقدنا العربي الحديث المتأثر بالتيارات الغربية، ويبقى في الأخير كما يرى الباحث – فاضل تامر– (3) أنه يتعين على الناقد العربي أن يبلور مقاربة نقدية يفهم خلالها النص ضمن سياقاته الاجتماعية والتاريخية والايديولوجية وذلك لكي لا يجد نفسه في شراك مقاربة شكلانية للنص تفرغه من جوهره الاجتماعي ودلالته التاريخية والفلسفية.

ونتيجة للانجازات المعرفية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة فقد بات من الضروري الاتكاء على المناهج والمصطلحات اللسانية، خاصة إذا توخينا العمق، فعلينا بإقامة العلاقة بين داخل النص وخارجه لكون اللغة كما يرى " دوسوسير" ذات طابع اجتماعي.

ومادام النص ملتقى تأويلات وأشكال من الفهم التي يطرحها القارئ بغية الكشف عن المعنى، وهذا النص لاسيما الرفيع منه متجدد الولادة، لذا فهو لا يحمل معنى منتهيا، ذلك لأن النص على حد تعبير أحد الباحثين(4) " هو بنيته متحولة مهاجرة موضوعة في مفترق الدلالات، مفتوحة على المعاني، وليس يعني أنه قابل لكل معنى، مرسوم في أفقه كل تأويل لأن تصورا لهذا هو في جوهره نقص لوجود النص وإلغاء سلطته، كما أنه إلغاء لسلطة القراءة نفسها " ، فهذه البنية المتغيرة تنطلق من نواة لترحل في لذة اللغة وتجرب شبق الإبداع والاغتراب، فهي إضافة إلى الأطراف المتعلقة بها مسكونة بحب الترحال(5) والتبدل قدرها التغير والتبدل، لاسيما وأن النص كان دائما مجالا لانتهاك في نظر نظام يضبط تلقائيا ونحويا وميتافيزيقيا وحتى علميا وفق مقتضياته، هو نص ليس أحادي التكوين بل محطة لقوى عدة وتفاعلات جمة، وهو ملتقى لعدد من المكونات والعناصر المتشابكة(6) حاضرة وغائبة وملموسة ومجردة، غير أنه لابد من الأخذ بعين الاعتبار أن تعدد قراءات النص لا تفقره بل تثرية وتكشف عن آفاقه وأبعاده في سياق الثقافة المتغير ويبقى في الأخير متوالية من التجليات عند الدارسين ويتموقع ذلك النص في الواقع الذي ينتجه عبر لغة مزدوجة تتم في مادة اللسان وفي التاريخ الاجتماعي.

2- الظاهرة الأدبية الاجتماعية (التأصيل - التحول)

يجد الباحث صعوبة في الفصل بين المنهج الاجتماعي والمنهج التاريخي في دراسة الظاهرة الأدبية. فالكثير من الباحثين لا يميز بينهما إذ هما معا يعنيان ارتباط الأدب والأديب بالحياة في كافة وجوهها وظروفها المختلفة، ومن ثمة فإن الأدب في النهاية ما هو إلا نتاج تلك الظروف، كما أنه انعكاس للحياة بأبعادها المختلفة، وقد ولد المنهج الاجتماعي في أحضان المنهج التاريخي، لذا يرى البعض(7) بأن المنهج الاجتماعي هو جزء من المنهج التاريخي، وقد دامت العلاقة بين الأديب ومجتمعه علاقة جدلية، فإنه يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه، فالمنهج الاجتماعي أو السوسيونقدي هو نقد معنوي وتفسيري وتقويمي، ومن ثمة فهو يعلي من شأن الكاتب الملتزم تجاه قضايا وطنه المعبر عنها. فإن النقد يهتم بشكل خاص بالأعمال الأدبية الواقعية ويهمل في أغلب الأحيان تلك الأعمال التي

تميل إلى الرمزية والعبثية، كما انه وقف ضد تيار " الفن للفن " هو نقد تبناه الماركسيون حتى سمي نقدهم بالنقد الإيديولوجي أو النقد المضموني الذي يحكم على العمل الأدبي ويصدر الأحكام النقدية عليه حسب اقترابه من الحياة الاجتماعية والواقعية ولاشك أن أصالة هذا المنهج تكمن في إقامة العلاقات بين المجتمع والعمل الأدبي ووضعها، ذلك لأن المجتمع كائن قبل العمل والكاتب محدد به، فهو يعكسه ويعبر عنه ويتطلع إلى غيره، لاسيما وأن النظرية الأدبية في بعض جوانبها نظرة سوسيولوجية، ومن ثمة لا يمكن فهم الأدب إلا بمعاني الجمالي والتاريخي والنفسي والاجتماعي.

وتعود بداية الدعوة إلى تبني هذا المنهج إلى القرن (18) على يد مدام دي ستيل والفلاسفة أمثال: هيجل وماركس،وتعد مدام دوستال أول من حاول تأويل العلاقات بين الأدب والمجتمع من جهة نظر شخصية مثالية، بينما نجد ماركس أول من أعطى تفسيرا موضوعيا للعلاقة بين الأدب والمجتمع، واعتبر أن الأدب واقعة اجتماعية تاريخيا نسبيا، وأن الكاتب يعبر في أعماله عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمي إليها بوعي أو بغير وعي، غير أنه وبعد تحول شكل الرواية الكلاسيكية (بداية القرن-19- وخمسينيات القرن -20-) أصبح هذا الاتجاه النقدي يود ألا يقصر سوسيولوجيا الأدب على بحث العلاقة بين مضمون الأثر الأدبي والوقائع الاجتماعية والتاريخية وإنما أن يضم إليه بناء الأثر الفني أو الأدبي أيضا، فينظر في الأثر لظهور هذا الاتجاه كلية البناء الداخلي الخاص وبناء الوسط الخارجي).

وقد مهدت نظرية الانعكاس التي تهتم بفكرة الحتمية الاجتماعية والتاريخية، عوضا عن فكرة إلهام الشخصية للكاتب، وأصبحت فيما بعد تمثل اتجاها واسعا في العديد من أعمال الباحثين التي جعلت من المبادئ الأدبية قيما مطلقة بدلا من النظر إليها علمية محددة باعتبارها قيما نسبية تاريخية، والأدب في ظل هذه النظرية يتوقف على الأحوال الاقتصادية والظروف الموضوعية للمجتمع .

إن المتتبع للدراسات السوسيونقدية يجد فرقا واضحا بين المنهج السوسيونقدي في شكله التقليدي، فالباحث في ظل المنهج التقليدي يرى في الربط بين مضمون الآثار الأدبية وعدد معين من الوقائع الاجتماعية والتاريخية أساسا للدراسة، فالباحث يحلل هذه العوامل ويحاول الجمع فيما بينها من علاقات لمحاولة الوصول إلى اكتشاف القانون الذي يحكم هذه العلاقات بينما نجد المنهج السوسيونقدي الراهن ينظر إلى الأثر ككل وأن العناصر ليست قائمة بذاتها بقدر ما هي مرتبطة ببعضها البعض،وبنيات الأثر الأدبي في ظل هذا المنهج الراهن لها مفهوم دينامي وليس مفهوما جامدا.

ويعد هذا المنهج من أكثر أنواع المناهج رواجا، ومع هذا نجد الكثير من الدارسين يظلمون(8) النقد الماركسي حين يصفونه بضيق الأفق وقصور الرؤية، وهو رأي لا يخلو من مكابرة وتحامل، ذلك لأن هذا النقد يطرح أمامنا جملة من الخيارات والطرائق التي بواسطتها يمكن تحليل الإبداع.

ولعل السر الذي جعل هذا النقد ينتشر انتشارا واسعا وذا قدرة مثيرة على مقارعة الشيخوخة أنه يقع وسطا في رؤيته الفنية.

هو نقد مولع بالشكل من خلال المضمون وهذا قد أفضى إلى قيام البنوية التي ذهبت في نظرها إلى رفض التاريخ الاجتماعي والسياسي صراحة ورفض المضمون حتما، فقد شن البنويون حربا على النقاد الماركسيين ويتجسد ذلك فيما كتبه رولان بارت في مقال له بعنوان: ما النقد ؟

فالنقد الماركسي كما يرى " بارت "(9) يتناول الكتابة تناولا ميكانيكا خاصا، وهو من هذا المنظور لا يدعو إلى بث القيم النقدية والبحث عن حقيقة النص من خلال نفسه، بمقدار ما يصدر أوامر استعلائية ".

رغم اختلاف المدرستين فإنهما تتفقان على الكفر بالقيم الروحية للإنسان ولذلك بم يجد لم جولدمان أية صعوبة في المزاوجة بين هاتين المدرستين في بنيويته التكوينية سوسيولوجية الأدب أو سوسيولوجية الأدبية.

يقرر ليينا ردت(10) أن هناك فرقا بين المصطلحين :

كل ما في النص إنما يصدر عن فعل ما من أفعال المجتمع أو يصدر كما ترى الماركسية عن " علاقات اجتماعية للإنتاج" .

إن دوشيه قد استفاد من الطروحات السابقة ، مما جعله يدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار الطابع الاجتماعي للنص، إضافة إلى احترام هويته الفنية والأدبية، وفي هذا السياق يندرج تصريحه الذي يقول فيه (15)(يود النقد الاجتماعي النأي في الوقت ذاته عن شعرية للبقايا – شعرية البواقي ( poétiques des restes ) تصفي ما هو اجتماعي وعن شعرية للمضامين تهمل ما هو نصي (تهمل النصانية) .

فانطلاقا من قوله نلحظ أن هذا النقد يحاول إعادة الاعتبار للنص الأدبي من خلال ربط العناصر الجمالية بالعناصر الاجتماعية، وهذا ضمن علاقة جدلية اعتمادا على مجموعة من الوسائط كالخطاب الاجتماعي والأيديولوجي، غير أن هذا النقد على حد تعبيره لا يمثل تيارا واحدا متماسكا، بل مصطلح النقد الأدبي الاجتماعي يعطي اليوم مقاربات متكاملة أحيانا، ولكنها متمايزة، فهناك مقاربتان:

أ– مقاربة أنجنو : (angenot) الذي يؤكد على مفهوم الخطاب الاجتماعي بوصفه (كل ما يقال ويكتب في حالة من الاجتماعية) وهذا اعتمادا على إجراءات متمايزة .

– تحليل منهجي للخطاب الاجتماعي المرتبط بعصر ومرحلة ما.

– استخلاص وحدات تنطلق من الخارج إلى الداخل (من خارج النص إلى داخله) مما هو غير نصي إلى ما هو نصي.

ب– مقاربة زيما (zima) : الذي ينطلق من النص الأدبي إلى السياق الاجتماعي (علم اجتماع النص).

فزيما ينطلق من مقاربته من مفهومين أساسيين هما:

1– اللهجة الاجتماعية (sociolecte) "وهي لغة إيديولوجية ناظمة على المستويات المعجمية والدلالية والتركيبية لصالح جماعة معينة"

وفق ذلك فإن التراعات الاجتماعية والإيديولوجية تتخذ طابعا لغويا.

2- الوضعية اللسانية الاجتماعية **(situation sociolinguistique)** وهي الحالة الاجتماعية للغة كما عاشها المؤلف المعني بالأمر والكتاب الذين عرفهم أو ساندهم، وهي بذلك تكون نوعا من الإطار الاجتماعي التاريخي، منظما للفعاليات اللغوية على صعيد النص، ولاشك أن المقاربة الزيمية (زيما) تدين بالكثير لأعمال باختين خاصة في نظريته المتعلقة بالملفوظ ومفهومه للعلامة (علامة إيديولوجية).

من هذا المنطلق نتساءل كيف يستجيب النص للمشاكل الاجتماعية والتاريخية على المستوى اللغوي؟ ذلك ما عمل زيما على تطويره معتمدا على نماذج مستعارة من رواية الغريب (**étranger**) لألبير كامي **A.Camus** وأعمال آلان روب غرييه **A. R Crillet** .

ومارسيل بروست **M. prust** وهي تمثل مختلف مستويات النص بوجود بنى لسانية واجتماعية، لأن القيم الاجتماعية لا توجد مستقلة عن اللغة والوحدات المعجمية.

ثانيا : مقاربات عربية

لقد تجلت بوادر المنهج الاجتماعي النظري بصورة خاصة في المعارك الأدبية والفكرية التي دارت بين الأدباء والنقاد أمثال (أحمد أمين، سلامة موسى، أمين الخولي، توفيق الحكيم وغيرهم) حول موقف الأدب العربي قديمه وحديثه من المجتمع.

فمن الدراسات التي تبنت هدا المنهج في التعامل مع النص دراسة غالي شكري " مقدمة في سوسيولوجية الرواية العربية المعاصرة غير أنها بعيدة عن استعمال المصطلحات الشائعة في المجال السوسيولوجي مثل البطل المشكل، رؤية العالم ....

ومن الباحثين كذلك في هدا المجال " لويس عوض " الذي كتب بحوثا عديدة تهتم أساسا بإبراز تأثير الوسط الاجتماعي على الأثر الأدبي، فهو يحاول الربط بين الأدب والسياق الاجتماعي والتاريخي عن طريق الاستعانة بمنهج التفسير، فهو يرى أن الأدب نشاط لا ينفصل عن المجتمع وأنه أحد أدوات التغير الاجتماعي.

كما بحث محمود أمين العالم في مسألة النقد الاجتماعي الأدبي ونال تحليل مضمون الأثر معظم دراساته، إضافة إلى جهود عبد المحسن طه بدر ورجاء عيد الذي بحث في المقام الأول – قضية التزام الكاتب بقيم وظروف المجتمع.

وختاما:

فإن المرجعية الاجتماعية للأدب وتطور التحليل السوسيولوجي للنصوص الأدبية قد عرف انفتاحا كبيرا، مما جعل النقد السوسيولوجي (السوسيو نقدي) يتجاوز المقولات الإيديولوجية ويغامر صوب مقاربات النص من خلال مناهج أخرى.

الإحالات:

1- سلسلة المحاضرات، نشر النادي الأدبي الثقافي جدة، كتاب 67 المجلد 59، 1991 ص .70.

2- أحمد مكي مناهج النقد الأدبي (مترجم مكتبة الآداب القاهرة 1991 ص 124-125)

3- فاضل ثامر ، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث . المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ص 35 وما بعدها.

4- صناعة المعنى وتأويل النص، أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربية وآدابها، تونس 1 ، أيام 24-27 أفريل، 1991، المجلد 8 منشورات كلية الآداب منوبة 1991 ص .358

5- المرجع نفسه، ص .352

6- النقد والممارسات النقدية، أعمال المؤتمر الدولي الثاني، للنقد الأدبي المنعقد بالقاهرة، نوفمبر 2000 نشر وطبع المنار العربي الجيزة، مصر ط1 2003، ص .112

7- وليد قصاد، مناهج النقد الأدبي رؤية إسلامية، دار الفكر د/س/د/ط ص .210

8- عبد المالك مرتاض في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية ورصد لنظرياتها) دار هومة الجزائر2002، ص .108

9- المرجع نفسه، ص 108-.109

10- المرجع نفسه، ص .125

11- المرجع نفسه، ص .132

12- زياد العوف. الأثر الإديولوحي في النص الروائي (ثلاثية نجيب محفوظ) مؤسسة النوري للطباعة والنشر دمشق 1993، ص .192

13- الطاهر روابنية، سوسيولوجية الأدب وسوسيولوجيا الكتابة أعمال الملتقى الوطني (مناهج تحليل الخطاب) جامعة عنابة أيام 6-7-8 ماي 2001، ص .5

14- جان إيف ناديه، النقد الأدبي في القرن العشرين. ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا ، ط1، 1994، ص 136 وما بعدها.

15- زياد العوف، الأثر الإديولوجي في النص الروائي، مرجع سابق، ص 193.